■ الباب الخامس

هــارلمي

« سندوتشات جبن وهام ممتازة ! قهوة ! حلوى ! كعك! بوظة !» وأنا أقفز بين العربات وأمر في الممرات لمدة أربع ساعات مرة كل يومين في القطار الذي يسمى «سفينة اليانكي السريعة » من بوسطن إلى نيويورك مارًّا بنيوهافن وهارتفورد .

كلمنا مستر راونتري الحمال العجوز في عربة البولمان وصديق إللا عن وظيفة لي في سكة الحديد . أخبر العجوز إللا أن الحرب كانت تخطف رجال السكة الحديد بسرعة وأنهم إذا اعتقدوا أن عمري واحد وعشرون سنة فسيحصل لي على وظيفة هنالك . كانت إللا تريدني أن أترك بوسطن وأبتعد عن صوفيا وأكثر ما كانت تتمناه هو أن تراني في الزي العسكري بالكاكي والأحذية الثقيلة مثل كثير من الزنوج الذين بدأوا يكثرون في روكسبري وهم في أجازة من المعسكر . لكن صغر عمري منع ذلك .

قبلت العمل في سكة الحديد لأسبابي الخاصة . كنت دائماً أود زيارة مدينة نيويورك وقد سمعت كثيراً من القصص عن « التفاحة الكبيرة » كما كان يسميها كثيرو الترحال من الموسيقيين ، جنود البحرية ، الباعة المتجولون ، سائقو عربات البيض وأنواع مختلفة من الفتوات الذين قابلت . وحتى عندما كنت في لانسنج كنت أسمع عن سحر نيويورك ، خاصة هارلم . حقيقة كان أبي يصف لنا هارلم بفخر وأرانا صوراً لمظاهرات وصفوف أتباع ماركوس جارفي من سكان هارلم . وكلما فاز جو لويس

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

في بطولة ملاكمة ضد منافس أبيض كانت تظهر على الصفحات الأولى من صحف الزنوج مثل **حامي شيكاجو** و **بتسبيرج كورير والأفرو أمريكي**، صور أمواج كبيرة من زنوج هارلم يهتفون ويلوحون والمدفعجي الأسمر يحييهم من شرفة تيريزا هوتيل في هارلم . كان كل ما سمعته عن نيويورك مثيراً – أشياء مثل أضواء برودواي الوهاجة وقاعة السافوي ومسرح لمبولو في هارلم حيث تعزف أعظم الفرق وحيث ولدت أجمل الأغاني والرقصات وبزغ النجوم السود .

لكن الذهاب إلى نيويورك كان يتطلب أكثر من مجرد حزم الحقائب ومغادرة بوسطن أو لانسنج أو أي مدينة أخرى قاصداً نيويورك . كان الذهاب إلى نيويورك يتطلب بعض المال ، لذلك لم أكن أفكر كثيراً في زيارة نيويورك إلى أن أتت الفرصة المجانية للذهاب من حديث العجوز راونتري مع إللا التي كانت في جماعة كنيسته .

ما لم تكن إللا تعرفه هو أنني سأستمر في مقابلة صوفيا . عندما أخبرت صوفيا عن العمل في القطار قالت أنها ستتفلت لمقابلتي في كل ليلة أعود فيها إلى بوسطن وكان ذلك يعني مرة كل ليلتين إذا كانت ورديتي تسمح بذلك . لم تكن صوفيا تريدني أن أترك بوسطن إطلاقاً ولكن لأنها كانت تظن أنني في عمر التجنيد فإن العمل في القطار سيبعدني عن الجيش .

كان رأي شورتي أنها فرصة طيبة لي وكان هو مهموماً يخشى من استدعائه للتجنيد الذي كان يدرك أنه لابد آت قريباً . كان مثل المئات من شباب الجيتو السود الذين كانوا يتناولون مادة ما يقال أنها تجعل قلب الشخص يبدو معتلاً لأطباء التجنيد . وكان لشورتي وأنا وجميع زنوج الجيتو رأي في الحرب : « الرجل الأبيض يملك كل شيء ثم يريدنا أن نرمي أجسادنا من أجله ؟ فليحارب وحده ! » .

على أية حال وفي مكتب التخديم في السكة الحديد على شارع دوفر ، كان هنالك كاتب أبيض عجوز متعب عندما دخلت لأسجل اسمي . « العمر ، يا لتل؟ » وعندما قلت واحداً وعشرين لم يرفع رأسه من الكتابة . تأكدت أنني سأتحصل على وظيفة .

وعدوني بأني سأحصل على أول وظيفة طاه – رابع تشغر في سفرية بوسطن نيويورك وإلى أن يحين ذلك جعلوني أساعد في تحضير الإمدادات الغذائية في الفناء المقضب في شارع دوفر . « طاه رابع » كانت مجرد اسم كبير لمنظف الأطباق ولكنني لم أهتم طالما أنها تمنحني الفرصة لأسافر حيث شئت . وضعوني مؤقتاً للعمل في قطار « الاستعماري » الذي يذهب إلى واشنطن د س. كان طاقم الطهاة هنالك وعلى رأسهم طاه من جزر الهند الغربية يدعى ديوك فون ، يعملون بكفاءة لا تصدق في مكان ضيق . وكان النادلون يهذرمون بطلبات الزبائن وصوت كركرة القطار من خلفهم والطهاة يعملون كالآلات وخمسمائة ميل من الأطباق والقدور والأواني الفضية تشق طريقها نحوي . عندما يبيت

القطار ليلة في واشنطن كنت طبيعياً أذهب أتفرج في وسط البلد في واشنطن. ذهلت حينما رأيت وعلى بعد خطوات من مبنى الكونجرس زنوجاً يعيشون في حالة أسوأ مما رأيت في أفقر أحياء روكسبري، في أكواخ خشبية أرضيتها متسخة وأزقة قذرة بأسماء مثل زقاق الخنزير وزقاق العنزة. لقد شاهدت أشياء كثيرة في حياتي ولكني لم أر مثل هذا العدد الكثيف من المتبطلين السكارى وبائعي المخدرات والقوادين وعاملي المراهنات. حتى الأطفال الصغار كانوا يجرون حفاة ونصف عراة يتسولون من أجل بنسات في منتصف الليل. أخبرني بعض الطهاة والنادلين أن أكون حذراً جداً لأن السلب والنهب والذبح يحدث كل ليلة بين هؤلاء الزنوج .... على بعد خطوات من البيت الأبيض.

لكنني رأيت أيضاً زنوجاً أحسن حالاً يعيشون في مباني طابوق أحمر مهترئة. كذلك علمت من قدامي موظفي قطار «الاستعماري» كيف أن بواشنطن «طبقة وسطى» من الزنوج يحملون شهادات من جامعة هوارد ويشتغلون كعمال نظافة وحمالين وخفراء وسائقي عربات أجرة وعمال مما شابه. وكانت وظيفة موزع البريد وظيفة ذات مكان محترم بين زنوج واشنطن.

بعد عدة زيارات عمل لواشنطن أعلمني مكتب التخديم أنه بإمكاني أخذ مكان بائع الساندوتشات في قطار «قابض اليانكي» إلى نيويورك مؤقتاً فانتهزت الفرصة. كنت في بذلتي الزوت قبل أن ينزل أول الركاب. أخذني الطهاة إلى هارلم في عربة أجرة ومرت نيويورك البيضاء أمام ناظري كفيلم سينمائي وعندما مررنا من سنترال بارك في الجهة العليا عند الجادة رقم ١١٠ فجأة بدأ لون بشرة الناس يتغير.

يمر الشارع السابع المزدحم بمكان يدعى جنة سمول التي حدثني عنها طاقم الطهاة ونحن نغادر بوسطن وكيف أنها مكانهم المفضل في هارلم وينبغي ألا تفوتني زيارته. لم أنبهر بمكان للزنوج مثلما بهرني ذلك المكان. في مشربه الدائري الفاخر الضخم رأيت ثلاثين أو أربعين زنجياً أغلبهم من الرجال يحتسون المشروبات ويتحدثون. كان أول ما بهرني، فيما أعتقد، أزياؤهم المحافظة وسلوكهم. قبل ذلك كنت ما رأيت عشرة من زنوج بوسطن — دعك من زنوج لانسنج — وهم يشربون إلا وهم في جلبة ولكن هنا كان كل هؤلاء الهارلميين يحتسون ويتحدثون بدون جلبة، فقط همهمة خفيفة. كان الزبائن يدخلون ويخرجون والساقي يعرف الشراب المفضل لكل منهم ويعده لهم آلياً وأمام بعضهم قنينة كاملة.

الزنوج الذين عرفت قبلاً كانوا يعرضون أية نقود لديهم متباهين ولكن زنوج هارلم يضعون ورق البنكنوت بهدوء على المشرب. كانوا يحتسون الخمر ويومئون للساقي بلا مبالاة أن يصب كأساً لصديق بينما السقاة الذين هم في أناقة الزبائن كانوا يصرفون الأوراق النقدية أمام المشرب. كان سلوك الجميع يبدو طبيعياً وغير مصطنع وأثار ذلك

روعي . بعد خمس دقائق في جنة سمول تركت روكسبري وبوسطن إلى الأبد .

لم أكن قد عرفت بعد أن أولئك لم يكونوا ما يمكن أن نسميهم بزنوج هارلم العاديين . بعد ذلك وفي نفس الليلة اكتشفت أن في هارلم عشرات الألوف من بني جنسي الذين كانوا يثرثرون في ملابسهم الرثة مثلهم مثل الزنوج في أي مكان آخر . أما الذين رأيتهم في محل سمول فقد كانوا الصفوة الناضجة متقدمة العمر من دهاة هارلم . انتهت أعمال مراهنات اليوم ولم يبدأ قمار الليل وأعمال الإجرام الأخرى بعد . أما رواد حياة الليل العاديين الذين يعملون في وظائف عادية فقد كانوا في بيوتهم يتناولون عشاءهم بينما كان الزعران في لقائهم المسائي اليومي وحاناتهم المفضلة في كل أنحاء هارلم لهم وحدهم في تلك الساعة .

من جنة سمول ركبت عربة أجرة لمسرح أبولو . (أذكر جيداً أن فرقة جاي ماكشان كانت تعزف لأن مغني الفرقة أصبح صديقي بعد ذلك ، والتر براون الذي كان يغني « هوتي هوتي بلوز ».) من هناك وفي الجانب الآخر من الجادة ١٢٥ عند الشارع السابع رأيت تيريزا هوتيل الرمادية الضخمة العالية . كانت أروع فندق مسموح للزنوج أن ينزلوا فيه قبل أن تبدأ فنادق وسط البلد أن تقبلهم بسنوات . (تيريزا هوتيل مشهور بأنه الفندق الذي نزل فيه فيدل كاسترو عندما زار الأمم المتحدة وحقق نصراً معنوياً على وزارة الخارجية الأمريكية التي حصرت خطواته في حدود مانهاتن ولم تكن تتخيل أنه سينزل في هارلم ويترك ذلك الاثر في الزنوج.)

في الجادة ١٢٦ قرب المدخل الخلفي لمسرح أبولو توجد برادوك هوتيل التي كنت أعرف أن مشربها هو مكان لقاء الزنوج المشهورين . دخلته ورأيت أمام المشرب المزدحم نجوماً مشهورين مثل دزي جلسبي ، بيل إكستاين ، بيلي هوليداي ، إللا فتزجرالد ودابنا واشنطون .

بينما كانت دابنا واشنطون خارجة سمعت أحدهم يقول إنها في طريقها إلى قاعة السافوي حيث كانت فرقة ليونل هامبتون ستعزف تلك الليلة وكانت دابنا مغنية الفرقة . مقارنة بقاعة السافوي بدت قاعة روزلاند في بوسطن صغيرة ورثة كما كان رقص اللندي في السافوي في حجم وروعة المكان . كان أداء هامبتون المنطلق يتماشى مع سرعة أعضاء فرقته العظام مثل أرنت كوب ، إلنوي جاكت ، دكتسر جوردون ، إلفن هايز ، جو نيومان وجورجيا جنكنز . أديت جولتين من الرقص مع فتيات في جانب الحلبة .

كان حوالي ثلث الموائد الجانبية مزدحماً بالبيض الذين يأتون غالباً لمشاهدة الزنوج يرقصون إلا أن بعضهم كان يراقص البعض وكما في بوسطن كانت هنالك عدة فتيات بيضاوات يراقصن زنوجاً . كان الناس يهتفون لهامبتون ليؤدي « طائر للوطن » وأخيراً

أداها. جعلني أداؤه أصدق القصة التي سمعتها في بوسطن عن تلك المقطوعة وعن كيف أنه كان ذات مرة يؤديها في مسرح أبولو حتى ظن أحد الزنوج المسطولين في البلكونة الثانية أن بإمكانه أن يطير فحاول ذلك وقفز من البلكونة فكسرت رجله الشيء الذي جعل إيرل هاينز يخلدها في أغنية عندما ألف مقطوعة تسمى « قفزة البلكونة الثانية ». لم أر في حياتي رقصاً حامياً في مثل تلك الحرارة . بعد ذلك عزفوا نمرتين هادئتين فخمدت حركة المكان وهنا ظهرت داينا واشنطون . عندما أدت أغنية « بلوز بابا المالحة » كاد الناس أن يمزقوا سقف السافوي . (أقيمت جنازة داينا المسكينة قبل مدة في شيكاجو وقرأت أن عشرين ألف شخص اصطفوا ليلقوا نظرة أخيرة على جثمانها وكان ينبغي أن أكون هنالك . مسكينة داينا ! لقد صرنا أصدقاء في تلك الأيام .)

إلا أن ليلة زيارتي الأولى تلك كانت ليلة فنيي المطبخ في السافوي حيث يكون مساء الخميس أجازة لخدم المنازل . سأقول أن عدد النساء في تلك الليلة كان ضعف عدد الرجال ولسن فقط عاملات مطبخ وخادمات ولكن زوجات جنود حرب وعاملات في الدفاع المدني يبحثن عن أنيس لوحدتهم . في الشارع عندما خرجت سمعت عاهرة تسب بحرقة قائلة أن المحترفات تعطلن من العمل بسبب الهواة .

في أعلى المنطقة وأدناها ، في عرض الشوارع وفيما بين شارع لينوكس والشارعين الثامن والسابع كانت هارلم مثل بازار بألوان التكنكلر . مئات الجنود والبحارة الزنوج يحدقون ببلاهة ومن في مثل عمري يمرون . في ذلك الوقت أصبحت هارلم مكاناً محظوراً على الجنود البيض فقد حدثت عدة حوادث نهب وسلب كما وجد بعض الجنود البيض مقتولين . كان البوليس يحاول أن يثني البيض عن زيارتها ولكنه لم يستطع منع من أراد الزيارة منهم . وكان أي رجل يسير بدون امرأة في صحبته هدفاً للبغايا . « بيبي ، هل لك في شيء من المرح ؟ » كان القوادون يمشون جانباً ويقتربون من المارة ثم يهمسون : « كل أنواع النساء يا جاك – هل تريد امرأة بيضاء ؟ » كذلك كان المحتالون ينادون على بضاعتهم بصوت خفيض في أذنيك : « خاتم الماس ثمنه مائة دولار الماس ، يا رجل ، أيضاً ساعة ثمنها تسعون دولار – آنظر إليهما . خذ الاثنين مقابل خمسة وعشرين».

في مدى عامين سأصبح أستاذاً في هذا المجال ولكنني في تلك الليلة كنت قد فتنت بذاك العالم . هذا هو عالمي ! كنت في طريقي لكي أصبح واحداً من أكثر المجرمين الطفيليين من بين الثمانية ملايين شخص الذين يسكنون مدينة نيويورك – أربعة ملايين منهم يعملون والأربعة الملايين الآخرين يعيشون عالة على الأولين .

لم أكن أصدق كل ما سمعته ورأيته تلك الليلة عندما عدت لأحمل صندوق ساندوتشاتي المعلق بحزام من كتفي وقدر القهوة الثقيل سعة خمس جالونات المصنوع من الألمونيا وأنا أركض في ممرات « سفينة اليانكي » العائدة إلى بوسطن . تمنيت لو

أن علاقتي بإللا كانت أحسن لأصف لها شعوري . لكنني تحدثت إلى شورتي حاثا إياه على الأقل ليرى عالم موسيقى التفاحة الكبيرة (نيويورك) . أنصتت صوفيا إليَّ وقالت : إنني لن يهدأ لي بال حتى أقيم في نيويورك وكانت محقة في ذلك . في ليلة واحدة أصبحت مخدراً بسحر نيويورك وهارلم .

لم تكن هنالك من فرصة أمام بائع الساندوتشات الذي حللت محله لاستعادة وظيفته فقد اندمجت في العمل وأصبحت أطلع وأنزل في القطار وأنادي على بضاعتي بصوت عال في ممرات القطار . كنت أبيع الساندوتشات والقهوة والحلوى والكعك والبوظة بنفس السرعة التي كان مخزن مصلحة السكة الحديد يمدنا بها . لم يأخذني الزمن وقتاً طويلاً قبل أن أتعلم أن كل ما عليك أن تفعله هو أن تقدم استعراضاً وسيشتري الرجل الأبيض منك كل شيء ، تماماً مثلما كنت أفرقع صوت خرقة التلميع من قبل. كذلك كان النادلون في عربة المطعم والحمالون في البولمان يدركون ذلك ولذا أتقنوا دور العم توم (المسكين) حتى يتحصلوا على أكبر بقشيش . كنا في ذلك العالم من عوالم الزنوج الذين عليهم أن يصبحوا خدماً ونفسانيين في نفس الوقت مدركين أن الرجل الأبيض مستبد لدرجة أنه يجزل لك العطاء إذا أشعرته بأهميته وسريت عنه.

في كل ليلة يبيت فيها القطار في نيويورك كنت أركض إلى هارلم وأكتشف أماكن جديدة . في البداية كنت أقيم في مركز الشباب المسيحي لأنه كان على بعد مبنى واحد من جنة سمول ثم بعد ذلك صرت أقيم في غرفة رخيصة في بنسيون مسز فيشر الذي كان قريباً من مركز الشباب المسيحي حيث كان ينزل أغلب رجال السكة الحديد . كنت أمشط ليس مناطق الأنوار اللامعة فحسب بل مناطق هارلم السكنية أيضاً ، أرقاها وأحقرها ، من شوجر هيل قرب ملاعب البولو حيث كان يقيم كثير من المشاهير إلى الأحياء القذرة المزدحمة ذات الشقق التي تسكنها الفئران والتي تزخر بكل ما هو غير قانوني وفاسق تخيله . قذارة وبراميل زبالة تتدفق أو مقلوبة ، سكارى ، مدمنو مخدرات ومتسولون . حانات خربة ، وواجهات كنائس يسمع منها صراخ المصلين ، متاجر رخيصة ومحلات رهن ومحال حانوتية . مطاعم أكلات منزلية دهنية ، كوافير نسائية تدخن من الداخل حيث يشوي شعر الزنجيات ، دكاكين حلاقة تعلن عن كي الشعر كونك . عربات كاديلاك جديدة ومستعملة تبرز وسط العربات الأخرى .

وكل ذلك ما هو إلا طرف لانسينج الغربي أو جنوب روكسبري مكبر ألف مرة . قاعات رقص في السرداب عليها علامة « للإيجار». أشخاص يقدمون لك بطاقات صغيرة تعلن عن « حفلة لجمع تكلفة الإيجار ». ذهبت إلى واحدة من هذه الحفلات ووجدت ثلاثين أو أربعين زنجيًا يعرقون ويشربون ويأكلون ويرقصون ويقامرون في شقة مهترئة مزدحمة

والفونوغراف يلعلع ، والفراخ المشوية أو المصارين مع سلطة البطاطا والخضر بدولار للطبق وعلبة الجعة أو كأس العرق بخمسين سنتاً . في الشارع كان هنالك طوافون زنوج وبيض يمشون بجانب الشارع ويتحدثون إليك بسرعة علك تشتري نسخة من جريدة العامل اليومي : « هذه الصحيفة من أجل تخفيض إيجارات بيوتكم ... أجعل المالك الجشع يقتل الفئران في شقتك ... هذه الصحيفة تمثل الحزب السياسي الوحيد الذي رشح زنجيًا لمنصب نائب رئيس الولايات المتحدة ... من يا ترى جاهد لإطلاق سراح أبناء سكوتزبورو ؟ » من حديث الزنوج عند مرور هؤلاء الباعة التقطت ما معناه أن لتلك الصحيفة صلة ما بروسيا ولكن ذلك لم يكن يعنيني في كثير بعقلي العقيم في ذلك الوقت . في تلك الأيام كانت الإذاعة والصحف ملأى بالحديث عن حلفائنا الروس ، قوم أقوياء وفلاحون شديدو البأس وجدوا أنفسهم وظهرهم إلى الحائط وهم يساعدون أمريكا لتحارب هتلر وموسوليني .

كانت نيويورك هي الجنة بالنسبة لي وهارلم هي الجنة السابعة . كنت أتسكع في جنة سمول وفندق برادوك بكثرة لدرجة أن السقاة أصبحوا يصبون لي كأساً من مشروبي المفضل ، البيربون ، عندما يرونني أدخل . كذلك أصبح الزبائن الدائمون في كلا المكانين ، والزعران في سمول والعازفون في برادوك ، ينادونني (رد) وهو لقب طبيعي نظراً لشعري الأحمر المكوي اللامع . بدأت أكوي شعري في محلات أبوت وفوجي في بوسطن الذي كان أحسن مكان لكي الشعر في الساحل الشرقي على حسب روايات عظماء الموسيقيين الذين رشحوه لي .

أصبح في عداد أصدقائي الآن أشخاص مثل صوني جرير ، ضارب الطبل الشهير في فرقة ديوك إلنجتون وراي نانس الذي يفعل أشياء مذهلة بالكمان . ذلك هو الشخص الذي كان يرتجل الغناء بكلمات مبهمة مع الكمان : « بليب — بلب — دي — بلوب — دي — بلام — بلام ». وشخصيات مثل كوتي وليامز وإدي ذي الرأس النظيف فنسون الذي كان يمزح معي عن شعره المكوي إذ كان أصلعاً . كان نجمه مرتفعاً في تلك الأيام بأغنيته : « هاي ماما المليحة ، اكتنزيني في سريرك النحاسي الكبير.» كنت أيضاً أعرف صاي أوليفر الذي كان متزوجاً من فتاة ذات بشرة حمراء ويقيمان في شوجر هيل . وزع صاي عدداً من القطع الموسيقية لتومي دورصي في تلك الأيام وكانت أشهرهن : « نعم ، تماما » .

عندما عاد رجل الساندوتشات النظامي في « سفينة اليانكي » وضعوه في قطار آخر مما جعله يتظلم محتجاً بأقدميته إلا أن سجلي في المبيعات جعلهم يسترضونه بطريقة ما . بعد ذلك بدأ الطهاة والنادلون ينادونني بـ : « الساندوتشي الأصهب.»

عند ذلك الوقت صاروا يتراهنون مازحين أنني لن أعمر طويلاً في تلك الوظيفة بالرغم من مبيعاتي العالية لأنني كنت بسرعة أتحول إلى شاب زنجي غير مهذب

ومتوحش . أصبحت التجديفية لغتي وكنت أسب الزبائن خاصة الجنود فلم أكن أطيقهم . أذكر مرة بعد أن تسلمت لفت نظر بسبب شكوى بعض الزبائن وأصبحت حريصاً ، أن تقدم مني وأنا في أحد الممرات جندي أبيض بدين أحمر الوجه ، يترنح من السكر وأعلن بصوت عال ليسمعه كل من في العربة : « إنني سأصارعك يا نيجر .» التهب الجو ولكنني ضحكت قائلاً : « ولم لا ؟ ولكنك ترتدي ملابس أكثر من اللازم.» كان يرتدي معطفاً عسكرياً ثقيلاً فخلعه فاستمررت أضحك وقلت له أن ذلك لا يكفي . ظللت أقول له ذلك وهو يخلع ملابسه إلى أن وقف هنالك سكران وعار تماماً إلا من بنطال وكل العربة تضحك عليه وهنا قام بعض الجنود وأبعدوه من طريقي . ذهبت لحالي إلا أنني لم أستطع نسيان ذلك – نسيان أنه كان بإمكاني ضرب ذلك الرجل ضرباً مبرحاً بعصاة مثلما ضربته في مخيلتي .

سيذكر الكثير من الطهاة والندلاء في خط نيوهافن الذين مازالوا في الخدمة إلى اليوم ، سيذكرون العجوز بوبي كوظنز . كان بوبي قهرمان « سفينة اليانكي » ، وهو رجل أبيض ، بالطبع ، ومن ولاية مين . (قضى الزنوج في خدمة الطعام في القطارات ثلاثين وأربعين سنة ، ولكن في تلك الأيام لم يكن بينهم قهرمان واحد في خط نيوهافن.) المهم أن بوبي كوظنز هذا كان يحب الويسكي ويحب الجميع بمن فيهم أنا . كان بوبي يدع كثيراً من الشكاوي عني تمر بدون عقاب ، فقط يطلب من بعض كبار الزنوج الذين أعمل معهم أن يهدئوني .

كانوا يردون : « إنه لا يصغي لأي شيء نقوله له » وذلك حقيقي . كانوا يرونني أتهادى مع صوفيا في روكسبري مرتديًا بذلتي الزوت الصارخة ، ثم بعد ذلك أحضر إلى العمل هائجاً مسعوراً ونصف مخمور ومخدراً وأستمر على تلك الحالة أدفع بالساندوتشات في وجوه الركاب إلى أن نصل نيويورك . عندما أنزل من القطار كنت أشق جمهور ساعة الذروة في محطة جراند سنترال بعد الظهر ويقف كثير من البيض ليتفرجوا عليَّ وأنا أمر . إذا كنت طويلاً فسيظهر جمال وخطوط بذلة الزوت أكثر وطولي حينها كان ستة أقدام ، كذلك كان لون شعري المكوي أحمر رائعاً . حقيقة كنت بهلواناً ولكن تفكيري الضيق جعلني أعتقد أنني كنت قمة في الأناقة . أما حذائي البرتقالي ذو العقدة الأمامية فكان مجرد فلورشايم (ماركة تجارية) الذي كان كاديلاك الأحذية في الجيتو في تلك الأيام . (بعض شركات الأحذية كانت تنتج مثل هذه الموديلات المضحكة لتبيعها خصيصاً في أحياء الزنوج الفقيرة ليشتريها الجهلاء أمثالي ويدفعون لها أثماناً باهظة لأنهم يربطونها بالثراء في نظرهم.) وما بين جنة سمول وفندق برادوك ومحلات أخرى أنفق عشرين أو خمسة وعشرين دولاراً ، والتي هي راتبي ، في شرب العرق وفي المخدرات مع الأصدقاء ثم أخيراً أذهب إلى

بنسيون مسز فيشر لأنام بضع ساعات قبل أن تتحرك « سفينة اليانكي » عائدة .

والحال كذلك كان من المحتم أن أُفصل من العمل ، آجلاً أم عاجلاً إلا أن السبب المباشر كان خطاب استياء من راكب أيده بائعو التذاكر بملاحظاتهم عن الشكاوي الشفوية المتكررة التي تلقوها من الزبائن وعن عدد الإنذارات التي تلقيتها بدون جدوى .

لكني لم أهتم لأنه في أيام الحرب تلك كانت الوظائف من النوع الذي يناسبني تبحث عمن يملؤها . وعندما دفعت لي إدارة خط نيوهافن استحقاقاتي قررت أنه سيكون جميلاً لو زرت أخواتي وإخواني في لانسينج خاصة أنه قد تجمعت لديّ تذاكر مجانية استحققتها من العمل في سكة الحديد .

لم يصدق أي شخص التغيير الذي حدث عندما رأوني . إلا أن أخي الأكبر ، ولفرد ، لم يكن موجوداً لأنه ذهب للدراسة في جامعة ويلبرفورس في ولاية أوهايو . أما فلبرت وهلدا فكانا يعملان في لانسنج وريجنالد الصغير الذي كان يتطلع إليّ كبر بدرجة تفوق عمره وكان ينوي أن ينضم إلى البحرية . والآخرون – يفون ، وزلي وروبرت – كانوا في المدرسة .

كان شعري ولبسي صارخين في نظرهم وكأنني حضرت من القمر . وتسببت في حادث حركة صغير فقد توقف سائق إحدى العربات فجأة ليحدق في فاغراً فاه فما كان من سائق العربة الخلفية إلا أن صدمه من الخلف . صعق منظري كبار الصبيان الذين كنت أحسدهم في السابق وكنت أخرج لهم يدي قائلاً : « تحسسني ، دادي – أو» كنت أحدثهم عن التفاحة الكبيرة وكيف كنت أسطل طوال الوقت – وحيثما ذهبت كنت أنا روح اللقاء : « يا صديقي ، مد يدك ! »

الشيء الوحيد الذي أعادني إلى عقلي هو زيارتي للمستشفى الحكومي في كالامازو . تفرست أمي في وجهي وكأنما عرفتني بعض الشيء .

ذهبت لزيارة والدة شورتي لعلمي أن زيارتي لها ستسره . كانت سيدة عجوزاً وقد سرها أن تسمع عن إبنها مني . أخبرتها أن شورتي بخير وأنه سيصبح قائداً عظيماً لفرقته الصغيرة في أحد الأيام . سألتني أن أخبره بأنها تود لو يرسل لها مكتوباً وبعض المال .

كذلك ذهبت إلى ميسون لزيارة مسز سويرلن المرأة التي اعتنت بي لمدة عامين في بيت الحجز . فغرت فاها من التعجب حين رأتني بعد أن فتحت الباب – كان منظري أكثر مما تتحمل وأنا ببذلتي الشاركسين الرمادية الصارخة والحذاء الضيق الطويل ذي العقدة الأمامية وقبعتي الفضية بشريطها العريض فوق الشعر المكوي بلون النار . تمالكت أعصابها ودعتني إلى الداخل وبين طريقة كلامي ومنظري شعرت هي بضيق وعصبية جعلت كلينا يرتاح عندما تركتها .

في ليلة مغادرتي البلدة كان هنالك حفل راقص في ملعب مدرسة لنكون . (منذ ذلك الوقت تعلمت أنك إذا كنت في مدينة غريبة تبحث عن منطقة الزنوج فما عليك إلا أن تبحث في دليل التلفونات عن عنوان أي مدرسة تسمى « مدرسة لنكون » ، فهي دائماً تقع في الأحياء الفقيرة التي يسكنها الزنوج – أو على الأقل كانت في تلك الأيام.) عندما تركت لانسنج في المرة الأولى لم أكن أعرف الرقص ولكنني هذه المرة كنت أتجول في الملعب أراقص الفتيات الصغيرات وأقذف بهن فوق أكتافي وحجري مستعرضاً حركاتي المدهشة . عدة مرات كادت الفرقة الصغيرة أن تتوقف عن العزف والكل تقريباً ترك الحلبة ليقفوا ويتفرجوا عليَّ وحدقات أعينهم توسعت كطبق . في تلك الليلة وقعت باسمي على الأوتوجرافات « أصهب هارلم » وتركت لانسنج مصدومة ومشدوهة .

عدت إلى نيويورك وأنا مفلس وبدون سند واكتشفت أن العمل في السكة الحديد هو الخبرة الوحيدة التي أمتلكها . لذلك ذهبت إلى مكتب التخديم في خط الساحل وكانت السكة الحديد في حاجة شديدة إلى العمال فلم أحتج لأكثر من إخبارهم أنني عملت في خط نيوهافن قبل أن يعينوني في ظرف يومين على « النيزك الفضي » الذي يعمل ما بين سانت بيترزبيرج وميامي . كنت أنظف العربات وأؤجر المخدات وأتأكد من راحة الركاب البيض وأكسب مبلغاً مماثلاً لما كنت أكسبه من بيع الساندوتشات .

بعد مدة قصيرة دخلت في إشكال مع رجل أبيض من فلوريدا كان يعمل مساعداً لبائع التذاكر وعندما عدت إلى نيويورك أخبروني أن أبحث عن وظيفة أخرى . لكن وفي مساء نفس اليوم ناداني أحد السقاة وأنا أدخل جنة سمول ولمعرفته بحبي لنيويورك تنحى بي جانباً وقال لي إذا كنت على استعداد لترك السكة الحديد فيمكن أن أحل مكان نادل الدوام النهاري الذي سينضم إلى الجيش .

كان صاحب المحل إد سمول وأخوه شارلي لا يفترقان . وظني أنه لم يكن بهارلم ثنائي محبوب ومحترم مثلهما . كانا يعلمان أنني من رجال السكة الحديد وتلك أحسن تزكية لمن سيعمل نادلاً . تحدثت إلى شارلي في مكتبه وكنت أخشى أنه سينتظر حتى يسأل عني بعض أصدقائه القدامى من السكة الحديد لأن شارلي لم يكن ليوظف شخصاً معروفاً بالطيش. لكنه قرر أن يعتمد على انطباعاته عني إذ أنه رآني في محلهم عدة مرات وأنا أجلس هادئاً وكأنني في حالة خشوع أراقب مجموعة الزعران . أخبرته أنه لم تكن لدي أية مشاكل مع الشرطة وتلك كانت حقيقة حتى ذلك الوقت . أوضح لي شارلي قوانين المكان : لا تأخير ، لا كسل ، لا سرقة أو أية مشاكل مع الزبائن خاصة الجنود . وهكذا التحقت بالعمل .

كان ذلك في عام ١٩٤٢ وكنت قد بلغت السابعة عشر لتوي .

مع وجود مكان سمول على مقربة من كل مكان مهم كانت الخدمة فيه هي الجنة السابعة سبعة أضعاف في نظري . لم يكن شارلي سمول بحاجة ليحذرني من التأخير لأنني كنت لا أقدر على الانتظار حتى يحين ميعاد العمل وأحضر قبل ساعة منه . أخذت مكان نادل الصباح الذي أخبرني أن العمل بطيء في ذلك الوقت وبالكاد أتحصل على بعض البقشيش كما أنه كان يبقى لمدة ساعة ليعلمني أسرار المهنة لأنه لم يكن يود لي أن أفصل من العمل .

بفضله تعلمت عشرات الأشياء الصغيرة التي تحبب الطهاة والسقاة في نادل جديد لأن بإمكان هاتين المجموعتين أن تسهلا أو تصعبا عمل النادل وكنت أنوي أن أجعلهم لا يستغنون عني . في ظرف أسبوع نجحت في كسب ود المجموعتين . أما الزبائن الذين كانوا يرونني بينهم حول المشرب فقد تعرفوا عليَّ في زي النادل وسرهم ذلك وأدهشهم ولذا كانوا ودودين . من جانبي كنت أفرط في الاعتناء بهم .

« أتريد كأساً آخر ؟ ... حالاً سيدي ... هل تود أن تأكل ؟ ... هنالك وجبات جيدة اليوم ... هل لي أن أحضر لك قائمة الطعام ، سيدي ؟ أو ربما ساندوتشاً ؟ » .

لم يكن الطهاة والسقاة هم وحدهم الذين يعرفون كل شيء بل حتى الزبائن بدأوا يلقنوني في كلمات بسيطة عند المشرب حينما لا أكون مشغولاً . أحياناً كان زبون ما يتحدث إليَّ وهو يأكل وأحياناً كنت أنهمك في حديث طويل أنصت فيه إلى كل كلمة مع واحد من كبار المجربين الذين عاشوا في هارلم قبل أن يأتيها الزنوج – وكانت مفاجأة كبيرة لي أن هارلم لم تكن دوماً حياً للزنوج .

في البداية كانت هارلم مقرًّا للمهاجرين الهولنديين كما عرفت . ثم بدأت بعد ذلك تغزوها أمواج من المهاجرين الأوروبيين الفقراء نصف الجياع الذين كانوا يصلون حاملين كل ما يملكون من متاع الدنيا في أكياس على ظهورهم . بدأ ذلك بالألمان فانسحب الهولنديون منها وصارت هارلم ألمانية تماماً . ثم أتى بعد ذلك الإيرلنديون هاربين من مجاعة البطاطا الشهيرة . هرب الألمان من هارلم وهم ينظرون إلى الايرلنديين بازدراء وصارت هارلم للإيرلنديين وعندما وصل اليهود إلى هارلم كانت للإيطاليين الذين تركوها بعد ذلك . ما يحدث اليوم هو أن سلالة هؤلاء المهاجرين البيض تجري قدر ما تستطيع هرباً من سلالة الزنوج الذين كانوا يفرغون السفن التي حملت أولئك المهاجرين .

صعقت عندما علمت أنه بينما لعبة الكراسي الموسيقية هذه مستمرة ، عاش الزنوج في مدينة نيويورك منذ عام ١٦٨٣ قبل أن يأتي أي من هؤلاء المهاجرين وينتشرون في كل أنحاء المدينة . كان الزنوج في البداية يقيمون في منطقة وول

ستريت الحالية ثم أخلوهم منها إلى منطقة جرينوتش فيلدج . ثم دُفع الزنوج بعد ذلك إلى منطقة محطة بنسلفانيا وكانت المحطة قبل الأخيرة التي دفع إليها الزنوج هي منطقة الجادة ٥٢ وذلك هو السبب أنها تعرف بالجادة المتمايلة حيث احتفظت بسمعتها لمدة طويلة بعد أن تركها الزنوج .

بعد ذلك وفي عام ١٩١٠ تمكن تاجر عقار زنجي من أن يجد لأسرتين أو ثلاث من الزنوج مسكنا في عمارة يملكها يهود في هارلم . هرب اليهود من تلك العمارة ثم من كل المربع وبدأ الزنوج يحلون محلهم تدريجياً ثم بدأت مربعات بأكملها تخلو من اليهود ويحل محلهم زنوج . في فترة قصيرة غدت هارلم كما نعرفها اليوم – زنجية خالصة .

من ثم وفي أوائل العشرينيات بدأت الموسيقى والملاهي تزدهر في هارلم يدعمها البيض الذين كانوا يأتون إلى هارلم من وسط البلد كل ليلة . بدأت الموسيقى في هارلم أول ما بدأت حينما وصل إلى نيويورك عازف بوق صغير العمر صعب المراس من نيوأورلينز يدعى لويس « ساتشمو » آرمسترونج يرتدي حذاء كأحذية الشرطة وبدأ يعزف مع فلتشر هندرسون . في عام ١٩٢٥ تم افتتاح جنة سمول والجمهور يملأ الشارع السابع ، في ١٩٢٦ افتتح « نادي القطن » العظيم الذي ستعزف فيه فرقة ديوك النجتون لمدة خمس سنوات ، كذلك افتتحت في نفس العام قاعة السافوي التي كانت تشغل مربعاً كاملاً في شارع لينوكس وبها أرضية للرقص طولها ماتتا قدم تحت الأضواء المركزة وبها منصتان للفرق الموسيقية ومسرح خلفي .

بدأت سمعة هارلم تنتشر وبدأ البيض من كل أنحاء العالم يغزونها ليلاً وبدأت حافلات السياح تملأ المكان . كان نادي القطن مخصصاً للبيض فقط كما انتشرت نوادي أخرى كثيرة من جميع الأنواع بما فيها غير الشرعية وهدفها هو نقود البيض . من بين النوادي المحترمة كانت هنالك حانة كوني ، نادي لينوكس ، البارون ، نادي العش ، كوخ جيمي للفراخ ومنتون. كانت قاعات السافوي والجسر الذهبي والنهضة يتنافسون على الزبائن وقد ابتدع السافوي أفكاراً جذابة مثل أمسية فنيي المطبخ ، مسابقات الجمال ومسابقة كل ليلة سبت جائزتها عربة. كانت الفرق الفنية تأتي من جميع أنحاء القطر لتقدم عروضها في تلك القاعات كما في مسرح أبولو ومسرح لافاييت بقيادة عازفين مبهرجين مثل فس وليامز بسترته المحلاة بالماس وقبعته أو كاب كالواي ببذلته الزوت البيضاء التي ما بعدها زوت وقبعته البيضاء بخطوطها العريضة وربطة عنق سلكية . أشعل كالواي النار في هارلم بمقطوعاته « خرقة التمر » ، « هاي – دي – هاي – دي – هو » ، « مستشفى سانت جيمس » و « ميني المتسكعة » .

كانت مدينة الزنوج تعج بالبيض ، القوادين ، العاهرات ، بائعي الخمور الممنوعة ، والزعران من كل الأنواع بشخصياتهم النابضة بالحياة بالإضافة إلى الشرطة ورجال

محاربة الخمور . كان الزنوج يرقصون كما لم يرقصوا في أي مكان قبل وبعد . أظن أن أكثر من خمسة وعشرين من العجائز في جنة سمول أقسم لي كل منهم بأنه كان أول من رقص « قفزة اللندي » في السافوي حيث ولدت هنالك في عام ١٩٢٧ وسميت على لندبيرج الذي قام بأول رحلة طيران من نيويورك إلى باريس .

حتى المحلات الصغيرة في السراديب التي لم تكن تسع إلا البيانو كان عندها فنانون بارعون مثل جيمس ب. جونسون وجلي رول مورتون ، ومغنيات مثل إيثل وترز . وعند الساعة الرابعة صباحاً حيث تقفل كل المحلات المرخصة في نيويروك كان الموسيقيون بيضاً وسوداً يهرعون إلى مكان متفق عليه في هارلم وحينها يقدمون فواصل بأربعين أو ثلاثين آلة موسيقية ويستمرون حتى الصباح .

عندما انتهى كل شيء بانهيار البورصة في عام ١٩٢٩ كانت هارلم قد اشتهرت عالميًا بأنها قصبة أمريكا وكان مكان سمول جزءاً من كل ذلك وهنالك سمعت القدامى يجترون الذكريات عن عظمة الأيام الخوالي .

كل يوم أسبح في عالم آخر وأنا أصغى إلى الزبائن يتحدثون إليَّ وكل ذلك زاد من خبرتي . كانت أذناي تمتصان كالسفنجة كل كلمة يقولها لي أحدهم في لحظة تجلي أو حينما ينتشي ويعترف لي من خلال حديثه عن نوع النصب الذي كان طريقه لكسب العيش . وهكذا تلقيت دروساً متقنة من خبراء في أشياء مثل المراهنات ، القوادة ، أساليب الغش من جميع الأنواع ، بيع المخدرات والسرقة بمختلف أنواعها بما فيها النهب المسلح .